

رَمَزِيَّةُ النَّاقَةِ عِنْدَ الشَّاعِرِ الْجَاهِلِيِّ الْمُثَقَّبِ الْعَبْدِيِّ

The Symbolism of the Camel for the Pre-Islamic Poet
Al-Mothakkab al-Abdi

* ط.د. بفاقه علي¹ د. رفرافي بلقاسم²

begaga ali¹ refrefi belkacem²

جامعة محمد خيضر، بسكرة - الجزائر

مخبر الانتماء إن وجد: وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها

Mohamed Khaidar University of Biskra- Algeria

1 ali.begaga@univ-biskra.dz

2 belkacem.refrafi@univ-biskra.dz

تاريخ النشر: 2021/03/30

تاريخ القبول: 2020/12/01

تاريخ الإرسال: 2020/11/04

ملخص البحث

حاولت في بحثي هذا تتبع رمزية حضور الناقة في شعر الشاعر القيسي المثقّب العبدي لأنه من أبرز الشعراء الجاهليين الذين أبدعوا في وصفها وتخصيصها والتخاور معها، باعتبارها رمزاً مُفَعِّمًا بالإجاءات النفسية والاجتماعية والسياسية التي تعكس واقع تلك البيئة الصحراوية القاسية، لذلك كان هديني هو الإجابة عن إشكالية: ما هو الحضور الرمزي للناقة في الشعر الجاهلي عمومًا وفي أشعار المثقّب العبدي خصوصًا؟ وذلك وفق المنهج الوصفي التحليلي.

وقد خرجت بنتائج مهمة منها: أنّ الناقة أقرب الحيوانات إلى قلب العربي لما خلق فيها الله من صفات جليلة تتفق وصفات العربي وتتلائم مع بيئته الصحراوية القاسية كالصبر والصلابة والسرعة، كما أنّ حضور الناقة يكون كمعادل نفسي، ومطيبة وفيّة لتحقيق الغايات.

الكلمات المفتاح: -رمزية - ناقة - شعر المثقّب العبدي - طبيعة - معادل نفسي - تحقيق

الغايات

Abstract:

In this research, I tried to follow a symbolic presence of the camel in the poetry of the poet al-Mothakkab al-Abdi because he is one of the most important pre-Islamic poets who described the camel and diagnosed her and talked to her because she is a good friend. Besides, the camel is seen as a

* علي بفاقه ali.begaga@univ-biskra.dz

symbol replete with psychological, social and political revelations that reflect the impact of that harsh desert environment. So the aim of this study is to answer the following problematic: What is the significance of this symbol in the poetry of that time and in the poems of Mothakkab al-Abdi? Hence, I used the descriptive-analytical method and the most important results that are obtained from this study are : the camel is close to the heart of Arabic man and it is a way of gaining psychological balance and achieving any goals .

Keywords: -symbolism – camel - poetry of Mothakkab al-Abdi - estrangement - psychological balance - Achieving goals



-مقدمة :

إنّ الشعر الجاهلي في جوهره رسالة فنية راقية، تحاكي شعورا إنسانيا صادقا، ونابعا عن تجربة حقيقية وعميقة، تأصلت في وسط الصحراء العربية القاسية والموحشة، لأناس ألفوا الرحلة واعتادوا المشقة، لذلك أكثر العرب من وصف الناقة والرحلة في أشعارهم، ومن ذكر المشقة والعناء الذي لاقوه في أسفارهم، وكان لحضور الناقة في أشعارهم دلالات وأبعاد رمزية تعكس مزاجهم النفسي وظروفهم الاجتماعية وأوضاعهم السياسية .

و قد استعنت بالمنهج الوصفي التحليلي لتتبع رمزية الناقة عند الشاعر الجاهلي المثقّب العبدى، الذي عزف لها أرقّ الأنغام، وأبدع لها أجمل الأشعار، واتخذها صاحبة ومعشوقة ومؤنسة، يحاورها ويسامرها ويبوح لها بالأسرار، و قد لاحظت أنّ لحضور الناقة رمزية فنية ونفسية واجتماعية، فوصف الناقة في الشعر الجاهلي تدرّج فنيّ كلاسيكيّ في بناء القصيدة العربية يلتزمه المثقّب كغيره من الشعراء الجاهليين، وهي معادل نفسي يحمق التوازن في ظلّ القطيعة مع المحبوبة، وهي مؤنسة وصاحبة لنيل المطالب والمقاصد، وانطلاقا ممّا سبق حاولت الإجابة عن بعض الإشكالات المهمة والتي من أهمّها: ما هي رمزية الناقة في التراث الشعري العربي القديم؟ وما موقف النقاد العرب منها؟ وما هي الرمزية النفسية والاجتماعية والسياسية للناقة في شعر المثقّب العبدى؟

إنّ للمحيط الاجتماعي والثقافي أثر كبير في عملية الإبداع الشعري والخلق الفني لأيّ شاعر، لذلك قال الفيلسوف جون لوك في نظريته: " إن الإنسان يولد وعقله صفحة بيضاء، وكل ما يقوم به الإنسان من سلوك هو عبارة عن شيء مكتسب من البيئة المحيطة"¹، ومن هنا فإنّ

الشاعر الجاهلي المثقّب العبدى هو أحد الشعراء الذين كان للبيئة دور بارز في شعره، وخاصة شعر وصف الرحلة والناقة .

-أولا : وصف الناقة في الشعر الجاهلي بين الضرورة البيئية وميزان النقاد :

1- رمزية الناقة وعلاقتها بالبيئة الجاهلية:

قبل أن أتناول أثر البيئة في شعر الرحلة لدى المثقّب العبدى وددت أن أشير إلى رمزية الرحلة والناقة ودلالاتهما في شعر المثقّب العبدى والشعر الجاهلي عموما، ونعني بالرمز هنا البعد النفسي والاجتماعي، جاء في معجم تاج العروس: " الرُّقْرُ بِالْفَتْحِ هُوَ الْإِشَارَةُ إِلَى شَيْءٍ مِّمَّا يُبَيَّن بِالْفِعْلِ بِأَيِّ شَيْءٍ، أَوْ هُوَ الْإِيمَاءُ بِأَيِّ شَيْءٍ... " ²، فالرمز نعني به عدم التصريح بالمعنى، بل أن نكتي عن الأشياء والمعاني بأوصافها أو بما يماثلها ويقارنها في الشبه، لذلك قال تعالى لذكرى عليه السلام: " قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمْزَرًا ۖ وَادُّرُّ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسِيِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِنِّكَارِ " ³ .

و الشاعر الجاهلي كغيره لجأ إلى الرمز في وصف الرحلة والناقة من أجل التعبير عن رغباته ومكبوتاته النفسية دون تصريح أو كشف أو هتك للحواجز الاجتماعية والدينية والثقافية، " فرغبات الكاتب التي تنبع من غرائزه تلمس إشباعا بالإستدلال لأنها تجد ما يعوقها من الإشباع المباشر، فالإلزام الخلقى قد يضطرّه إلى أن يعبر عنها بواسطة رموز أو ما يشبه الستار أو النقاب، حتى يبدو مسايروا للعرف والتقاليد... " ⁴، لذلك يظهر أنّ الرمز عند الشعراء الجاهليين هو بمثابة معادل موضوعي وأخلاقي يأتي ليوافق بين الممنوع والمسموح، بين حاجز الأخلاق الذي يكتب المشاعر أحيانا وبين الضرورة النفسية التي تملي إشباع الرغبات، كما أنّ العرب القدامى كانوا يعتقدون أنّ المعاني المكتناة والدلالات الخفية أقوى وأنفذ إلى القلوب من المعاني الصريحة والمباشرة، يقول عبد القاهر الجرجاني: " كما أنّ الصفة إذا لم تأتكم مصرّحا بذكرها، مكشوفًا عن وجهها، ولكن مدلولًا عليها بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها، وألطف لمكانها " ⁵ .

و قد حظيت الناقة باهتمام كلّ الشعراء الجاهليين بما في ذلك المثقّب العبدى، فالناقة هي أجدى الحيوانات وأعظمها فائدة، " حيث كان الجاهلي بيته ولباسه، وأثاثه وفراشه من أصوافها وأوبارها وجلودها، وهي أداة انتقاله في الرحيل أو الترفيه عن النفس " ⁶ .

وكانت الناقة هي رأس مال العربي قديما تدخل في كل تفاصيل حياته وخاصة ما يضمن له الرزق والأمان، فكان يسمى الإبل والنوق بالمال، فقيمة الرجل بقدر ما يملك من النوق والجمال، " تُعطي لكل من أفراد المجتمع قيمة على قدر ما يملك منها"⁷.

لقد آثر الشاعر العربي وصف الناقة دون غيرها من الحيوانات لما رأى فيها من مميزات وصفات ليست في غيرها من الحيوانات، فهي أنسب الحيوانات لتلك البيئة العربية الصحراوية الجافة والقاسية، إذ تستطيع الناقة حمل الحمولة الكثيرة التي لا يطيقها غيرها من الحيوانات، لأنها قوية البدن وطويلة النفس وشديدة الصبر .

2- وصف الناقة في الشعر الجاهلي من منظور النقاد :

لقد شكّلت صورة الناقة في الشعر العربي الجاهلي اهتمام كثير من النقاد والفنيين القدامى والحديثين، وحاضوا في دلالاتها وأبعادها الرمزية معتبرين الناقة رمزا مفعما بالدلالة وكثيفا بالإيحاءات، واختلفت نظرة النقاد القدامى عن الحديثين، فمعظم النقاد القدامى يرون في وصف الرحلة والناقة مرحلة مهمة من مراحل التدرج الفني في بناء القصيدة الجاهلية، يقلد الشعراء الجاهليون بعضهم بعضا، ويقلد الحديثون القدامى فيخطون على نهجهم، ولا يخرجون عنه قيد أمثلة، ومن أشهر الأقوال النقدية في هذا المقام قول ابن قتيبة الدينوري في كتابه "الشعر والشعراء" : " سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مُصنِّد القصيدة إنما ابتداء فيه بذكر الديار والدمن والآثار، فبكي وشكا وخاطب الرِّبع، واستوقف الرفيق ؛ ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها ... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وسرى الليل، وحرّ المحجير، وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حقّ الرجاء وذمامة التأميل، وقّرر عنده ما ناله من المكارّه في المسير بدأ في المديح ...، وليس لتأخري الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزل عامر، أو يبكي عند مشيد البنيان ؛ لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العاني، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما؛ لأنّ المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجوّاري؛ لأنّ المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي..."⁸، وابن قتيبة هنا في معرض ذكره لمراحل بناء موضوعات القصيدة العربية الجاهلية ذكر لنا مرحلة مهمّة وهي مرحلة وصف الرحلة والناقة،

وذكر ما يعترض الشاعر من مشاق في رحلته، وهي مرحلة مهمّة لا يتجاوزها الشاعر الجاهلي بأي حال من الأحوال ، فهي بناء نمطي وصرح تقليدي .

و قد فصل الجاحظ أكثر في توظيف الشعراء الجاهليين للحيوان عموما وللنوق خصوصا، فبيّن أنّ الموضوع المراد التعبير عنه من طرف الشاعر له دور أساسي في تحديد نوع الحيوان الذي سيحضر في شعره، حيث قال: " ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحا، وقال: كأنّ ناقتي بقرة من ضمنها كذا أن تكون الكلاب هي المقتولة، ليس على أنّ ذلك حكاية عن قصّة بعينها، ولكنّ الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها، وأمّا في أكثر ذلك تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها هو الغانم " ⁹ .

أمّا المحدثون فكانت لهم تفسيرات مختلفة عن النقاد القدامى في تفسير حضور الناقة والرحلة في القصيدة العربية، " حيث نظروا إلى الناقة على أنّها رمز أسطوري لحكايات معينة، قد تتصل بمعتقدات دينية أو وثنية قديمة، فترك النقاد المحدثون تلك الإسقاطات الواقعية الحياتية القديمة محاولين التماس صورة رمزية جاهزة مقارنة ومماثلة، كمحاولتهم إسقاط صورة ناقة صالح كما يرويها القرآن الكريم على الناقة" ¹⁰ .

و هناك من النقاد المحدثين من يرى في وصف الناقة والرحلة معادلا موضوعيا لفكرة القطيعة مع المحبوبة، فهي تأتي في سياق محاولة الشاعر تناسي آلام الهجران بسبب بعد المحبوبة ورحيلها، ويرى مصطفى الشوري " أنّ الناقة غالبا يذكر معها كلاب الصيد للدلالة على مصير الأعداء الذين سيهزمون في نهاية المطاف، كما رأى أن العرب القدماء تصوروا السماء ناقة وتصوروا مطرها حليبا " ¹¹ ، ويرى الدكتور مصطفى ناصف " أنّ الناقة منبت كلّ ما أهم وأقلق وأحزن الشاعر الجاهلي، أو هي التي تخلق الأفكار التي ترفع الإنسان عن رتبة الحيوان، الأفكار العالية لا تتصل بإشباع الحاجات الأولية. الناقة في هذه الحالة ليست وسيلة بل هي غاية ... الناقة هي خالقة الأساطير التي أخرجت الشعر من الغناء الساذج إلى التصدي الملح لفكرة المشكالات، أو فلنقل إنّ الناقة هي التي نقلت الفكر العربي قبل الإسلام مما نسميه طبيعة الملاحم إلى طبيعة الدراما والصراع، فالعلاقة الأساسية بين الشاعر والعالم في شكل مزاج من الرفض والقبول تكمن في هذه الناقة " ¹² .

-ثانيا: رمزية الناقة في شعر المثقّب العبدى:

قبل التطرّق إلى حضور الناقة في شعر المثقّب العبدى وجب الإشارة إلى أنّ المثقّب العبدى شاعر عربي جاهلي من قبيلة عبد القيس العربية المشهورة التي سكنت ديار البحرين، وقد ذكر ذلك الكاتب والمؤرّخ جورجي زيدان في كتابه "تاريخ آداب اللغة العربية" حين قال: " وكان في جملة الذين كانوا يترددون على عمرو بن هند ويمدحونه... " ¹³، وقد كانت قبيلته كثيرة الترحال والتنقل من مكان إلى آخر، لذلك كثر في شعره غرض وصف الرحلة ومعه وصف الناقة، التي اتخذت عنده منحيين وهما :

1-الناقة في مقابل القطيعة مع المحبوبة :

يودّع الناس بعضهم بعضاً قبل الارتحال، والمرثجّل يودّع أهله ليخلفهم خافضين واضعين، وهم يودعونهم تفاعلاً، بالدعة التي يصير إليها إذا ارتحل، وأصعب لحظات الوداع عند الجاهليين وداع المحبوبة، إذ إنهم لا يستطيعون تحمّل هذه اللحظات كقول الأعشى :

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَحِلٌ *** وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ ¹⁴

و لحظات الوداع والفرق مع المحبوبة هي أصعب اللحظات وأكثرها مرارة على قلب الشاعر الجاهلي، لذلك يكثر من وصفها والتفصيل في جزئياتها، وها هو الشاعر المثقّب العبدى في هائيته المشهورة يتحسّر على هجر محبوبته هند له، فهي قد تنكرت لأيام الصبابة وليالي الوصال، فلم ترك لشاعرنا من حلّ سوى الرحيل والسفر على ظهر ناقته الفتلاء السريعة التي تنسي الهموم، فهي تقطع الفيافي بقوة وصلابة، وتخطو بسرعة عجيبة نحو الهدف، يقول المثقّب :

قَطَعْتُ بِفَتْلَاءِ اليَدَيْنِ دَرِيْعَةً *** يَعْوُلُ البِلَادِ سُومَهَا وَبَرِيْدُهَا ¹⁵

و يؤكّد المثقّب على صفة السرعة التي تتميز بها ناقته، وكأنّ همّ الهجران وآلام القطيعة مع المحبوبة لها وقع كبير في نفسه، لذا يودّ لو ينسى تلك الآلام بسرعة، وذلك عن طريق تغيير المكان والانتقال إلى أبعد بقعة، فتجده يقول في ناقته أنّها كالنعامة في سرعتها :

فَيْتُ وَبَاتَتْ كَالنَّعَامَةِ نَاقَتِي *** وَبَاتَتْ عَلَيَّهَا صِفْنَتِي وَقَتُّوْهَا ¹⁶

ثمّ نجد المثقّب يفصل في وصف حركات الناقة وإشاراتها التي تطلقها فتعكس حالات نفسية، وما هي في الأصل إلاّ نفسية شاعرنا المنهكة، فها هو يقول أنّ ناقته تغض طرفها، وتغلق عينيها من التعب لتعطي إشارة لصاحبها من أجل الاستقرار والراحة، يقول المثقّب:

وَ أَعْضَتْ كَمَا أَعْضَيْتُ عَيْبِي فَعَرَسَتْ *** عَلَى الثَّفَنَاتِ وَالْجِرَانَ هُجُودُهَا
عَلَى طَرَقٍ عِنْدَ الْأَرَاكَةِ رِيَةً *** تُؤَاوِي شَرِيمَ الْبَحْرِ وَهُوَ قَعِيدُهَا¹⁷

فيذكر المثقّب صفة المكان الذي استقرّ فيه هو وناقته، فيجعل للمكان شيئا من الهدوء والرومانسية المناسبة لمن يطلب نسيان الآلام والهموم، فهو قد استقرّ بجانب شاطئ البحر، والمعلوم أن قبيلة المثقّب تسكن في ديار البحرين وهي مشهورة بشواطئها الجميلة، ثم يفصل في وصف حالة ناقته وحركاتها فهي لا تهدأ أبداً، وكأنّ هراً أو جنينا يداريها وتداريه، يقول في ذلك:

كَأَنَّ جَنِيًّا عِنْدَ مَعْقَدِ غُرْزِهَا *** تُزَاوِلُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَيُرِيدُهَا¹⁸

والشاعر بعد أن يستريح قليلاً ليسترجع هو وناقته شيئا من قوتها يعود من جديد للرحلة والمسير، فيقول عن ناقته كأنّها لسرعتها ينهسها هراً عند غرضة وحزام الرحل فهي لا تستقرّ، ويواصل وصف حركتها وسرعة سيرها لأنّ في الحركة وسرعة السير معادلاً نفسياً له علاقة بمسح ذكريات القطيعة مع المحبوبة، والابتعاد عن مكان تواجدها قدر الإمكان، فيقول:

تَهَالِكُ مِنْهُ فِي الرَّخَاءِ تَهَالِكَا *** تَهَالِكُ إِخْدَى الْجُونِ حَانَ وَرُودُهَا¹⁹

فشاعرنا يرى أن ناقته تهالك في السير، والتهالك شدة السير والاجتهاد فيه، والرخاء الاسترخاء، يقول استرخاؤها في سيرها تهالك فكيف بسرعتها، ثمّ شبهها في تلك المشقة بالجون وهو طائر القطة .

ونجد المثقّب العبدى في نونيته المشهورة يبيّن بوضوح أنّ ناقته لها بعد نفسي فهي تأتي في شعره كصاحب يؤنسه في لحظات القطيعة مع المحبوبة، وهي الصاحب الصادق والمخلص الذي يعرف حق الصحبة، فالمثقّب بعد أن يفرغ من وصف القطيعة التي كانت بينه وبين محبوبته فاطمة يذكر ناقته ويعبر في وصف إخلاصها، ويجهّزها لرحلة النسيان نسيان الهموم والقطيعة، حيث نجد يقول مباشرة بعد رحيل محبوبته فاطمة:

فَقُلْتُ لِيَعْضِيَهُنَّ وَشُدَّ رَحْلِي *** لَهَا جِرَةٌ نَصَبْتُ لَهَا جَبِينِي
لَعَلَّكَ إِنْ صَرَمْتَ الْحَبْلَ مِيَّي *** كَذَلِكَ أَكُونُ مُصْحَبِي قُرُونِي
فَسَلِّ الهمَّ عَنْكَ بِدَاتِ لَوْثٍ *** عُدَا فِرَةَ كِمَطْرَقَةِ الثُّيُونِ²⁰

فآلام الهجر لم تترك لشاعرنا من خيار فهاهو يعصّب جبينه ويهياً ناقته ليسافر في حرّ الهجرة، فوقع الهم والهجر على نفسه لا يطاق ولا يمكنه الانتظار لذلك أنساه في حرّ الشمس،

ويخطاب فاطمة بأنها إن صرمت حبل الوصال فهذا لا يعني أنه سيبقى وحده بل إن معه صاحبه، ويعني بها ناقته القويّة والمسرعة التي تسلي عنه الهموم .
ثمّ يتعمّق في وصفها بالصدق والإخلاص، فهي معادل نفسي يحقّق لشاعرنا توازنا نفسيا في مقابل هجر المحبوبة له، يقول المثقّب :

بِصَادِقَةِ الْوَجِيفِ كَأَنَّ هِرًا *** يُبَارِبُهَا وَيَأْخُذُ بِالْوَضِيِّينَ
إِذَا قَلِقَتْ أَشَدُّ لَهَا سِنَاقًا *** أَمَامَ الزُّورِ مِنْ قَلَقِ الْوَضِيِّينَ²¹

ويذكر المثقّب أنّه إذا أبحر في المشي في الصحراء الشاسعة ونال منه التعب أرخى الزمام لناقته مع السدف والليل ليرتاحوا ويناموا بعد رحلة طويلة وشاقة، فالرحلة هي حركة تنسي الهموم وتجلب التعب الذي يجلب النوم والراحة، يقول :

فَأَلْقَيْتُ الزِّمَامَ لَهَا فَنَامَتْ *** لِعَادَتِهَا مِنَ السَّدْفِ الْمُبِينِ²²

ثمّ يصف المثقّب العبدى أنّ ناقته تشكو إليه هموم الدهر وأعباء الحياة، وكأنّ الشاعر يشكو آلامه وأشجانه على لسان ناقته، فالناقة معادل رمزي لمعاناة الشاعر وهمومه، يقول :

إِذَا قُمْتُ أُزْجِلُهَا بِلَيْلٍ *** تَأَوُّهُ آهَةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ
تَقُولُ إِذَا دَرَأْتُ لَهَا وَضِيئِي *** أَهَذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي
أَكْلُ الدَّهْرِ جِلٌّ وَإِرْتِحَالٌ *** أَمَا يُبْقِي عَلَيَّ وَمَا يُقِينِي²³

فالشاعر على لسان ناقته يشكو دوام الهموم وأعباء الحياة، فالإنسان لا يعرف الراحة في هذه الدنيا، فالرحلة من أجل كسب القوت ليس لها نهاية، ثمّ يتحسّر باستفهام بلاغي (أما يبقى عليّ هذا الدهر؟) .

2-الناقة وسيلة لوصل الملوك وتحقيق المراد :

وأعني بذلك أنّ الناقة كان لها رمزية سياسية فهي وسيلة نقل لتحقيق أغراض القبيلة السياسية في مناسبات الصلح وفي أيام الحرب والمفاوضات والتوسط لإطلاق سراح الأسرى، وقبل الخوض في ذلك لا بدّ أن أشير إلى أنّ المثقّب العبدى قد تميّز بالحكمة والرزانة وحسن التصرف، وقد ورث ذلك عن جده ثعلبة الذي كان رجلا مصلحا بين قبائل العرب، إذ كان فيمن أصلح بين بكر وتغلب، يقول المثقّب العبدى :

أَبِي أَصْلَحَ الْحَيَّيْنِ بَكْرًا وَتَغْلِبًا *** وَقَدْ أَرْعَشَتْ بَكْرٌ وَخَفَّ حُلُومُهَا²⁴

ونظرا لشخصية المثقب الرزينة اختارته قبيلته عبد القيس كسفير لها يمثلها في المعاهدات والصلح، وكانت ناقة المثقب العبدى هي صاحبة المؤنسة والمخلصة في رحلاته كلها، وفي القصيدة الهائية نجد المثقب بعد أن ينتهي من وصف ناقته ووصف رحلته الشاقة والطويلة يذكر لقائه بالملك المتحبر النعمان بن المنذر الملقب بأبي قابوس وذلك في سياق الوساطة لأسرى قبيلته العبديين، فناقة المثقب العبدى هي الصديق المؤنس في الرحلة ودونها لم يكن ليصل لتحقيق أهدافه، يقول :

تَهَالِكُ مِنْهُ فِي الرِّخَاءِ تَهَالِكًا *** تَهَالِكُ إِحْدَى الْجَوْنِ حَانَ وُرُودُهَا

فَنَهْنَهَتْ مِنْهَا وَالْمِنَاسِمُ تَرْتَمِي *** بِمِعْزَاءِ شَتَّى لَا يُرْدُ عَنْوَدُهَا²⁵

فناقة المثقب تهالكت من المسير ومشقة الرحلة تهالك طيور الجون حين عطشها فهي لا تستطيع الطيران، لذلك تنهت ناقة المثقب حتى عندت في مشيتها وتغير مسيرها من التعب، لكن هذا الجد وهذا الصبر أتى بثماره في آخر الرحلة :

وَ أَيْقُنْتُ إِذْ شَاءَ إِلَهِهٖ بِأَنَّهُ *** سَيُبْلِغُنِي أَجْلَادَهَا وَقَصِيدَهَا

فَإِنَّ أَبَا قَابُوسٍ عِنْدِي بِلَاؤُهَا *** جَزَاءً بِنِعْمِي لَا يَجِلُّ كُنُودُهَا

رَأَيْتُ زِنَادَ الصَّالِحِينَ تَمَيَّنَهُ *** قَدِيمًا كَمَا بَدَّ النُّجُومَ سَعُودُهَا²⁶

حيث تمكن المثقب العبدى بعد هذه الرحلة الطويلة والشاقة من الوصول إلى الملك المشهور أبي قابوس (النعمان بن المنذر)، وكان المثقب نعم الرسول الحكيم الذي تعتمد عليه قبيلته عبد القيس، فها هو بحكمة واسعة يدخل على النعمان بن المنذر المتحبر وهو يطلق كلمات المديح والثناء في ثقة تامة، إذ يقول له أن كرمك ونعيمك ليس له حدود، بل أنت من الرجال الصالحين وخيرك وكرمك في نماء وازدياد فهو كالنجوم التي تدل السائر في الليلة الهادئة.

وناقة المثقب هي ناقة سعد وفأل خير فيها هو المثقب يوفق في رحلته وينجح في مهمته الصعبة إذ يتمكن من إقناع الملك الظالم أبي قابوس فيطلق سراح الأسرى العبديين، فبعد أن مدح المثقب أبا قابوس قال له إن تطلق أسرانا ستفرح أمهاتهم وزوجاتهم فتحنن لعناهم، وسيدكرونك بالخير فيخلد ذكرك في التاريخ كما يخلد ذكر أسماء الكرام :

فَأَنْعَمَ أَبَيْتَ اللَّعْنِ إِنَّكَ أَصْبَحْتَ *** لَدَيْكَ لَكَيْزٌ كَهْلُهَا وَوَلِيدُهَا

وَأَطْلِقْهُمْ تَمَشِي النِّسَاءُ حِالَهُمْ *** مُفَكِّكُهُ وَسَطَ الرِّحَالِ فُيُودُهَا²⁷

ونجد المثقّب العبدى في نونيته المشهورة يكرّر نفس الصورة تقريبا فالناقة رمز لسعد الفأل وتحقيق الغايات والأهداف، حيث نجده بعد رحلة شاقة وعسيرة يصل إلى صديقه الملك المشهور عمرو بن هند، ويلقاه بعد طول غياب :

ثَنَيْتُ زَمَامَهَا وَوَضَعْتُ رَحْلِي *** وَمَرَقَةً رَفَدْتُ بِهَا يَمِينِي
فَرَحْتُ بِهَا تُعَارِضُ مُسَبِّطًا *** عَلَى صَحْصَاحِهِ وَعَلَى الْمُثُونِ
إِلَى عَمْرٍو وَمِنْ عَمْرٍو أَتَيْتُنِي *** أَخِي النَّحْدَاتِ وَالْحِلْمِ الرِّصِينِ²⁸

ويدخل عليه المثقّب العبدى في ثقة متناهية وعزّة لا نظير لها مصارحا له بصدق الوفاء، ومطالب إياه بالمثل في المعاملة، فإمّا أن يكون صديقا مخلصا ووفيا وإمّا أن يصارحه بالعداوة :

فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِحَقِّ *** فَأَعْرِفَ مِنْكَ عَنِّي أَوْ سَمِينِي
وَإِلَّا فَاطْرِحْنِي وَإِخْذَنِي *** عَدُوًّا أَتَقِيمُكَ وَتَتَّقِينِي²⁹

و لاشكّ أنّ هذه الثقة التي تميّز بها المثقّب هي ثقة رجل ألف ركوب المخاطر هو وناقته فلا يخشى شيئا، ولا أدلّ على ذلك قوله لعمرو بن هند :

وَ مَا أَذْرِي إِذَا يَمَمْتُ أَمْرًا *** أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
أَلْخَيْرَ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ *** أَمْ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِي³⁰

فهو دائم السفر والترحال ولا يدري ما الذي يسبق إليه الخير الذي يقصده أم الشرّ الذي يترقب به، فهو مستعد لكليهما .

ونجد المثقّب العبدى في الرائية ينحو نفس المنحى فالناقة هي الصاحب الذي يسلي الموموم بعد فراق المحبوبة، وهي التي توصله إلى أصدقائه من الملوك، فبعد أن يذكر بكائه للقطيعة التي كانت بينه وبين محبوبته ليلي يذكر ركوبه ناقته القوية والسريعة مبحرا في تلك الصحراء الشاسعة والصعبة، ومتخذًا من ناقته صاحبا وأنيسا يسلي همومه وأشجانه معها، فكانت نعم الرفيق والصاحب في طريقه إلى صديقه الملك عمرو بن هند :

وَ إِلَى عَمْرٍو وَإِنْ لَمْ آتِهِ *** مُجْلَبُ الْمِدْحَةِ أَوْ يَمْضِي السَّفَرِ
وَاضِحَ الْوَجْهِ كَرِيمٍ نُجْرُهُ *** مَلَكُ السَّيْفِ إِلَى بَطْنِ الْعُشْرِ³¹

-خاتمة:

إنّ الناقة العربية الأصيلة هي أكثر حيوان وصفه الشاعر العربي الجاهلي المثقّب العبدى، وقد وردت في شعره أكثر من غيرها من الحيوانات، وقد أبدع في وصفها وتشخيصها وتكثيف الدلالات الرمزية فيها، وقد خرجت من بحثي هذا بمجموعة من النتائج أهمها :

-البيئة العربية هي بيئة صحراوية شاسعة المساحة ومترامية الأطراف وشبه خالية من السكان وصعبة الظروف، فكان العربي يختار في رحلاته أقوى الحيوانات التي تستطيع أن تحتل مشقة السفر ولن يجد أشدّ قوة وتحملاً وصبراً من الناقة .

-لا تكاد تخلو قصيدة مطوّلة من الشعر العربي الجاهلي من وصف الناقة والرحلة، لأنّها جزء من البناء الفني والتدرج الموضوعاتي في تكوين القصيدة الجاهلية كما قال ابن قتيبة وغيره من النقاد القدماء .

-يرى كثير من النقاد خاصة المحدثون أنّ لحضور الناقة في الشعر الجاهلي أبعاد رمزية نفسية واجتماعية وحتى دينية واقتصادية وسياسية، فالناقة رمز الخصب وسعد الغال ورمز التغيير وإحداث التوازن النفسي في ظلّ هموم الحياة التي تعصف بقلب الشاعر وخاصة هموم القطيعة مع المحبوبة.

- حضرت الناقة في معظم أشعار المثقّب العبدى، حتى لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده السبع الطوال -المثبته في ديوانه المحقق من الباحث حسن كامل الصيرفي- من وصف الناقة .

- لاحظت أنّ المثقّب العبدى يتعمّق في وصف الناقة حيث يبدع في وصفها بالقوّة والسرعة، ويتفنّن في تصويرها وتشخيصها فكأنّها إنسان له أحاسيس ويعاني الأحزان والأشواق، وأحياناً يشبهها بالطيور أو حمار الوحش أو الغزال ... وغيرها .

-كان لحضور الناقة في أشعار المثقّب العبدى دلالات رمزية تعكس رغبات الشاعر النفسية، حيث لاحظت أنّ أبرز تلك الدلالات هي: إمّا ليحقق التوازن النفسي في ظلّ القطيعة مع المحبوبة المخلفة للعود، فالناقة تسلّي عنه الهموم وتعيّنه في تغيير الأجواء عن طريق السفر والارتحال، وإمّا تكون الناقة وسيلة معينة لوصول الأصحاب من الملوك لمدحهم ونيل المطالب المختلفة منهم .

-هوامش :

- ¹ -بشار مالك سليمان، فلسفة جون لوك وأبعادها التربوية (دراسة وصفية تحليلية)، رسالة لنيل شهادة الماجستير، إشراف الدكتور إبراهيم المصري، جامعة دمشق، كلية التربية، قسم أصول التربية، العام الدراسي 2015م، ص، 32.
- ² - محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: عبد المنعم خليل إبراهيم وكريم سيد محمود، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2007م، م8، مادة (رمز)، ص، 87 .
- ³ - سورة آل عمران، الآية، 41 .
- ⁴ - مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط3، 1996م، ص، 71 .
- ⁵ - أبو بكر عبد القاهر الجرجاني النحوي، كتاب دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر، ط3، 1992م، ص 66.
- ⁶ - حنّا نصر الحتي، الناقفة في الشعر الجاهلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007م، ص، 33 .
- ⁷ - المرجع نفسه، ص، 16 .
- ⁸ - ابن قتيبة، الشعراء والشعراء، تح: أحمد شاكر، دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 2، 1958 م، ص، 75 و76 .
- ⁹ - عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1965م ، ص، 200 .
- ¹⁰ - سعيد الأيوبي، عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، ط 1986م ، ص، 322 .
- ¹¹ - مصطفى عبد الشافي الشوري، الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1986 م، ص، 142.
- ¹² - مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1995م ،ص، 81 .
- ¹³ - جورجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية ، ط 2007م، ج1، ص:276.
- ¹⁴ - الأعشى الكبير ميمون بن قيس، ديوانه، ش. ت: د.محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميزت، المطبعة النموذجية، الإسكندرية، مصر، ط 1950 م، ص 55.
- ¹⁵ - المثقّب العبدى، ديوان المثقّب العبدى، شرح وتحقيق: حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية (معهد المخطوطات)، القاهرة، مصر، ط 1971م، ص، 88.
- ¹⁶ - المصدر نفسه، ص، 90 .
- ¹⁷ - نفسه، ص، 91 .

- 18 - نفسه، ص، 95 .
19 - نفسه، ص، 98 .
20 - نفسه، ص، 163 و164 .
21 - نفسه، ص، 170 و173 .
22 - نفسه، ص، 185 .
23 - نفسه، ص، 194 و195 .
24 - نفسه، ص، 257 .
25 - نفسه، ص، 98 و99 .
26 - نفسه، ص، من 101 إلى 104 .
27 - نفسه، ص، 116 .
28 - نفسه، ص، من 203 إلى 208 .
29 - نفسه، ص، 211 و212 .
30 - نفسه، ص، 212 و213 .
31 - نفسه، ص، 68 .